تأليف

إسماعيل بن حمّاد الجوهري
٣٩٢ هـ

تحقيق

أحمد عبد الغفور عطّار

الجزء الأوّل

دار العلم للملايين
ص.ب : ١٠٨٥ - بيروت
تلكس : ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

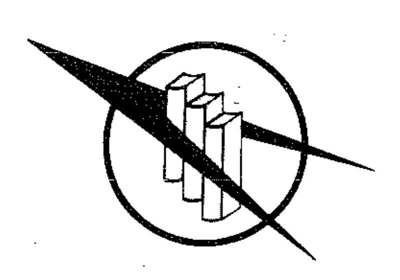

الطبعة الرابعة
كانون الثاني / يناير ١٩٩٠

الطبعة الأولى
القاهرة
١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م

الطبعة الثانية
بيروت
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

الطبعة الثالثة
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

قرآن كريم

مُقَدِّمَةُ الصِّحَاح

بقلم

خادم الحرمين الشريفين الملك العالم فهد بن عبد العزيز
ملك المملكة العربية السعودية

كتاب « الصحاح » للإمام اللغوي العظيم إسماعيل بن حماد الجوهري أصح معجم عربي، وهو أول معجم لغوي صحيح سار على نهج يَسَّر اللغة وقرَّبها وجعلها في متناول الناس جميعاً، والصحاح - كما يقول محققه الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في مقدمته الرائعة التي كتبها له -: « أول معجم خطا بالتأليف المعجمي أعظم خطوة عرفها تاريخ العربية في هذا السبيل ».

وعندما نشر معالي الشيخ محمد سرور الصبان مختصر الصحاح المسمى « تهذيب الصحاح » تمنى المخلصون للغة القرآن أن لو نشر « الصحاح » نفسه، فيخرج من طبعته الأولى التي أصبحت أندر من المخطوطات إلى طبعة تكون خيراً من الأولى في التحقيق والتبويب والإخراج الطباعي الجميل.

وها هي ذي الأمنية تتحقق بفضل الله جل جلاله، فيصدر « الصحاح » مُحقَّقاً تحقيقاً رائعاً، ومطبوعاً طباعةً أنيقةً.

أما المقدمة الرائعة العظيمة التي كتبها الأستاذ الباحث العطار، والتي أصبحت جزءاً من الصحاح، فإنها تعتبر بحق دراسة مبتكرة جديدة، لم يسبق منذ أُلِّف الصحاح أن أحداً من العلماء درسه دراسة الأستاذ المحقق،

وإن دراسته إياه تُعَدُّ خير ما كتب عن أول معجم عربي صحيح سهل التناول.

ولقد صدق الأديب العظيم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عندما وصف هذه الدراسة فقال: «إنها تصلح أن تكون مقدمة للصحاح ولسائر المعجمات العربية».

ويكفي هذه الدراسة العليا القوية فخاراً وشهادة بأنها عمل عظيم أن تنال إعجاب كاتب العربية الكبير الأستاذ العقاد.

والمقدمة - وحدها - كتاب جليل عظيم القدر، فقد درس فيه الباحث الأستاذ العطار اللغة العربية دراسة علمية دقيقة، وكتب عن تاريخ المعجمات في العالم، وتاريخ المعجمات في لغتنا كتابة لم يُسْبَقْ إليها في العربية، وأبدى آراء جدَّ صائبة في اللغة العربية قديمها وحديثها، ووسائل النهوض بها، وعقد فصلاً كبيراً عن «كتاب العين» حقق فيه نسبته إلى الخليل.

ومن أعظم البحوث المبتكرة التي ضمها كتاب الأستاذ العطار أو مقدمته التي كتبها للصحاح بحثه «المدارس المعجمية» وتقسيمه إياها إلى أربع مدارس، هنَّ: مدرسة الخليل، ومدرسة أبي عبيد، ومدرسة الجوهري، ومدرسة البرمكي، وأظْهَرَ سماتِ كل مدرسة وشخصيتها وخصائصَها و«علاماتها الفارقة» ونظامها وطريقة ترتيب موادها، ومن الكشوف العلمية التي تحسب للأستاذ العطار في حقل المعجمات أنه أول من كشف عمن ألف المعجمات على أوائل الحروف الهجائية كالنظام الحديث في تأليفها، فقد ذكر أن محمد بن تميم البرمكي أول من ألف معجماً على الطريقة الحديثة التي ترتب المواد والكلمات على حروف الألفباء، مع مراعاة الحرف الثاني والثالث والرابع في الكلمة.

وكان العلماء والباحثون يذكرون أن الزمخشري أول من سار على هذه الطريقة في «أساس البلاغة» فجاء الأستاذ العطار وأثبت أن البرمكي هو الأول، إذ تناول البرمكي صحاح الجوهري ورتبه على أوائل الحروف سنة

٣٩٧هـ، وتوفي الزمخشري سنة ٥٢٨هـ، مما يثبت ثبوتاً قاطعاً أن البرمكي أسبق.

وكتب عن الصحاح وقيمته العلمية ومزاياه وأثره في محيط العربية والتأليف اللغوي والمعجمي بحثاً جديداً غنياً بالمادة العلمية.

وما أشك أن الصحاح أجدر معجم بالنشر، لأنه يمتاز عن كل المعجمات التي عاصرته أو سبقته بميزات منها: أن المعجمات العربية التي سبقته أو ألفها أصحابها في عصر الجوهري أو بعده بقرن ليست سهلة أمام الباحث - باستثناء المجمل والمقاييس لابن فارس - بل هي صعبة، وهي مَتْيَهة تجهد الباحث وتعييه، فكتاب العين للخليل بن أحمد - الذي يعد أول معجم في العربية كلها إذ لم يؤلف معجم قبله، لأن الخليل هو مبتكر فن تأليف المعجمات في العربية كلها، كما ابتكر علم العروض - ليس سهلاً أمام من يريد أن يبحث فيه عن كلمة مغلقة المعنى، لأنه سار على نظام مغلق الأبواب، ألا وهو ذكره الكلمة ومقلوباتها، مثل: قبل، تقلب إلى: قلب وبقل وبلق ولبق ولقب، فإذا أردنا كلمة منها لا نعرف في أي الأبواب ذكرت، لأننا لا نعرف أيها الأصل وأيها الفرع.

وسار على نهج العين ابن دريد في كتاب «الجمهرة» والأزهري في «تهذيب اللغة» وكلاهما مثل كتاب العين في الصعوبة والوعورة.

وكان الناس قبيل الصحاح لا يفيدون من المعجمات المعدودات، بل كان العلماء أنفسهم لا يستطيعون الوصول إلى الكلمات التي يريدون الوقوف على معانيها إلا بجهد جهيد، حتى ألف الجوهريُّ صحاحَه فمهَّد الطريق وعبَّده أمام الناس، حتى الشادي نفسه يستطيع بقليل من المعرفة بالمعاجم وطريقة البحث فيها أن يهتدي إلى ضالته من الكلمات.

ومن هنا كانت مزية الصحاح على كل المعجمات التي سبقته أو عاصرته.

وإذا يسَّر الله من يحققه تحقيقاً علمياً دقيقاً، ووفق له من ينشره نشراً رائعاً جميلاً فإن ذلك من آيات حفظ الله للغة القرآن والسنة بحفظ أمثال «الصحاح» ونشره ليعم به النفع، وتصان اللغة.

والأستاذ العطار أغنانا بما كتب في مقدمته العظيمة عن وصف الصحاح، فهو لم يترك مجالاً لقائل أو كاتب أو باحث. فهو قد درس الصحاح وأعطاه حقه فوفاه القول والبحث، وذكر ما له وما عليه، وقدم دراسة بكْراً لم يُسبق إليها، وحشد من آرائه الصائبة وبحوثه المبتكرة ما ملأ به أكثر من خمسين ومائتي صفحة[1] جديرة بالاطلاع عليها والاهتمام بها من قبل العلماء والأدباء والمفكرين.

والحق أن هذا الكتاب أو المقدمة تعد أول بحث علمي في بلادنا، يقوم على قواعد محكمة، ومنهج علمي دقيق، تشارك به بلادنا شقيقاتها، فليس في هذا البحث فضول من القول، بل كله بحث وعلم، وأسلوب المؤلف في مقدمته أسلوب عربي رائع رصين، وبيانه آية في الروعة والجمال. وحسبنا أنه أسلوب العطار وبيان العطار.

وينتهي الكتاب أو المقدمة بفهارس في منتهى الدقة وجمال الترتيب، والفهارس الموضوعة هي: فهرس الأعلام، وفهرس الأماكن والبلدان، وفهرس الطوائف والأجناس، وفهرس الكتب الواردة أثناء البحث، وفهرس المراجع[1].

أما المقدمة التي كتبها أديب العربية الكبير الأستاذ العقاد. فهي آية في البحث العلمي، وذكر الأستاذ العقاد آراء آية في القوة والصواب والروعة، وليس غريباً على الكاتب الجبار أن يبدع القول فيما كتب، فالعقاد - دائماً - يَمْتَحُ من فكره وقلبه ومنطقه، وما كتبه في مقدمته «المركزة» خلاصة دراساته في الآداب والعلوم والفنون نصف قرن، والعقاد من أقوى علماء العربية المعاصرين، ومن أعظمهم اطلاعاً على أصول العربية وأسرارها ونوادرها، وبحوثه فيها بحوث ناضجة لا تتاح إلا لمن كان في مثل ثقافته الواسعة وذهنه الجبار.

---

(١) قبل أن تصدر «مقدمة الصحاح» مع الصحاح ظهرت في كتاب مستقل تحت عنوان «الصحاح ومدارس المعجمات العربية» وتقع في ٢٨٤ صفحة وملحق بها الفهارس التي أشار إليها جلالته.

وإنني أشكر الأستاذ العطار على ما بذل من جهود كبيرة ضخمة في المقدمة وفي تحقيق الصحاح، حتى كانت هذه الطبعة الرائعة الممتازة في التحقيق والتعليق والضبط والإخراج الطباعي الأنيق الذي يعد آية في الطباعة الفنية الحديثة[١].

الرياض: ١٤ رجب ١٣٧٥ هـ

فهد بن عبد العزيز آل سعود
ملك المملكة العربية السعودية

---

(١) كتب حضرة صاحب الجلالة الملك فهد بن عبد العزيز هذه المقدمة عندما كان جلالته وزيراً للمعارف سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م).

مقدمة الطبعة الثالثة

ويشاء الله بفضله وكرمه أن تصدر الطبعة الثانية من « الصحاح » من قِبَل دار العلم للملايين سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) وتنْفَدَ نسخها خلال أقل من سنتين، مما جعل طلبه يتجدد ويكثر فاستجبنا وأصدرنا هذه الطبعة، راجين أن ينتفع بها المشتغلون بلغة القرآن وأهل العلم وطلابه، والله الموفق.

الثلاثاء: ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ
٣/١/١٩٨٤ م

المحقق والناشر

مقدمة الطبعة الثانية

إمام العربية الجوهري مؤلف الصحاح من أعظم رُوّاد المعجمات العربية، ومبتكر المنهج الذي اتبعه في تأسيس صحاحه دون أن يتبع سبيلاً سبقه إليه أحد.

أما دعوى من زعم أن البندنيجي في مؤلفه المسمى «كتاب التقفية» قد سبقه فصار الجوهري غير مبتكر منهجه فباطلة، وقد رددنا عليها، وبيَّنا بطلانها في البحث المنشور بعد هذه المقدمة تحت عنوان «الجوهري مبتكر منهج الصحاح».

وصدر سنة ١٩٧٥ م معجم باسم «الصحاح في اللغة والعلوم» إعداد نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي وتصنيفهما، وتقديم الشيخ عبد الله العلايلي.

وجاء على الغلاف: «تجديد صحاح العلامة الجوهري» وذكر المصنفان في المقدمة أشياء تضيَّفا فيها «مقدمة الصحاح» التي كتبناها لطبعته الأولى التي حققناها، وبخاصة في بعض ما سبقْنا به غيرَنا، ولم يجيء عن أحد سوانا، مثل السبب الذي دعا الجوهري إلى اختيار منهجه عندما اعتمد الحرف الأخير من الكلمة، ومثل ذكرنا محمد بن تميم البرمكي الذي اختار الحرف الأول.

ولم يشر المرعشليان إلى «الصحاح» الذي حققناه، ولا إلى «المقدمة» التي كتبناها له، مع الاطلاع عليه والاقتباس منه، ولو ذكرا جهدنا العلمي لكانا أمينين وممن يضطلعون بالأمانة العلمية، ولما نقص من قدرهما بل لزاد، اما إغفال الذكر فخيانة تدين المصنفين بالسطو على جهود الآخرين،

وادعائهما إياها ، ولا يسعهما الادعاء بعدم الاطلاع على جهودنا ، ولو ادعيا ذلك لكانا من المفترين ، ولأضافا إلى إثم السطو إثم المكابرة والافتراء ، لأن ما ادعياه في « المقدمة » المنسوبة إليهما لم يجيء قط عن أحد غيرنا .

ولم أطلع على عمل المرعشليين إلا في السنة الماضية (١٩٧٨م) وكنت ببيروت ، فاتصلت بالشيخ عبد الله العلايلي ، وأخذتُ عليه إغفاله الإشارة إلى « الصحاح » الذي حققناه ، وعدم نقده مقدمة المصنف المرعشلي الذي ذكره مفرداً .

وأجابني الشيخ العلايلي : أنه لم يقرأ مقدمة المصنف ، وأنه طُلب إليه كتابة المقدمة فكتبها دون أن يطلع على عمل المرعشلي .

وعجبت من جوابه أكثر من سطو المرعشلي على بحثنا وآرائنا ، فقد كان فرضاً على عالم بحاثة كالشيخ العلايلي أن يكون غير ما وقفني هو نفسه عليه .

وعلى أي حال يصدر « الصحاح » الأصيل من قبَل « دار العلم للملايين » تلبية لرغبات أهل العلم وطلابه الذين رجوا أن يعاد طبعه ، فقد خلت السوق في العالم العربي والإسلامي منه ، وكنت في حاجة إلى بضع نسخ منه فلم أستطع الحصول إلا على نسخة واحدة دفعت فيها ألف ريال سعودي ، ورجع إليَّ راغب في نسخة فذكرت له قصة النسخة التي انتهيت إليها ، فذكر لي في أدب أنه يود الحصول على نسخة ولو بأكثر من الثمن الذي دفعت .

وتلقيت من بلدان العالم العربي والإسلامي رسائل يطلب إليَّ أصحابها نسخاً من « صحاح » الجوهري ، فاعتذرت لهم .

ولما رأيت الحاجة ملحة إلى إعادة طبع الصحاح من كثرة الطلب عليه عزمت أن أطبعه على حسابي لدى « دار العلم للملايين » فإذا هي ترجو أن يكون لها شرف نشر بعض المعاجم ومنها « قاموس الحج والعمرة » الذي ألفته فكان أول مؤلف في موضوعه يؤلف في العربية والإسلام ، فوافقت وأذنت .

وها هي ذي الطبعة الثانية تصدر بفضل الله ثم بفضل «دار العلم للملايين» التي أفضلت بطبع مئتي نسخة منه طباعة فاخرة للمحقق، راجين ان ينتفع بالصحاح قراء العربية من علماء وأدباء ومثقفين وطلاب علم.

وفقنا الله لإعلاء كلمته، ونفعنا بكتابه ولغته، وجعلنا حرّاس الفصحى وحُماتها والغُيُرُ عليها.

أحمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة

الأحد: ١ رجب ١٣٩٩ هـ
٢٧/٥/١٩٧٩ م

الجوهري مبتكر منهج الصّحاح

كتب الأستاذ الدكتور بكري شيخ أمين مقالاً تحت عنوان « الجاسر والعطار يكشفان عن خطأ علمي » نشره بمجلة « الخفجي » التي تصدرها « شركة الزيت العربية المحدودة » وأعادت جريدة « البلاد » السعودية نشره، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

وجاء في المقال قوله: « لقد درجنا في الوطن العربي على تقسيم المدارس المعجمية إلى أربعة أقسام:

« الأولى – مدرسة الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه « العين ».
« والثانية – مدرسة ابن دريد في « جمهرة اللغة ».
« والثالثة – مدرسة الجوهري في معجم « الصحاح ».
« والرابعة – مدرسة الزمخشري في « أساس البلاغة ».

وكانت هذه التقسيمات مداراً لبحوث ودراسات ومؤلفات كثيرة في مختلف أرجاء الوطن العربي ».

ويقول: « والملاحظ أنه لا أحد من الباحثين اعترض على هذه التقسيمات ولا على أصحاب هذه المدارس، وكأن ما وصلوا إليه هو القول الحاسم الجازم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

« وجاء الباحثون السعوديون فأقروا شيئاً من هذه التقسيمات وأنكروا شيئاً آخر، أقروا للفراهيدي بابتداعه طريقة جديدة في معجمه « العين » وأقروا لابن دريد ريادته في ترتيب « جمهرة اللغة » وأنكروا أن يكون الجوهري مبتدع ترتيب « الصحاح » كما أنكروا أن يكون الزمخشري مبتدع ترتيب « أساس البلاغة ».

« وهذا الانكار من العلماء السعوديين بني على أسس علمية، وتحقيقات لغوية، وبراهين حسية مدعومة بالبراهين الموضوعية، والحجج العلمية.

« فلقد أثبت الشيخ حمد الجاسر في عدد من الأبحاث العميقة التي نشرها في مجلته « العرب » في أعداد سنتها الأولى أن أبا بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي المتوفى سنة

ف

٢٨٤ هـ (٩٨٧ م) سبق الجوهري في منهج التقفية بمائة سنة ونيف، لأن الجوهري توفي سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) وأتى بالأدلة المادية، والصور الفوتوغرافية لمخطوط البندنيجي المسمى بـ «كتاب التقفية».

«وقد ذكر الشيخ حمد الجاسر أن هذا الكتاب من الكتب المغمورة التي قلَّ أن يرد لها ذكر في كتب اللغة، وهذا من الأسباب التي حملت كثيراً من الباحثين على الاعتقاد بأن الجوهري هو مبتكر منهج ترتيب الكلمات العربية بحسب الحرف الأخير منها، ثم أورد الجاسر كلام البندنيجي عن طريقته، كما أورد الأمثلة المختلفة الدالة على منهجه في ترتيب الكلمات.

ولكن باحثاً آخر استدرك على الجاسر اجتهاده فذكر الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وهو خال الجوهري وأستاذه، ومؤلف معجم «ديوان العرب»[١] سبق الجوهري بترتيبه والسير على نظام الباب والفصل، وأن أصحاب المعاجم عُيَّل على الفارابي في هذا الترتيب».

ثم أشار الدكتور بكري أمين إلى ذهابي أن الزمخشري ليس مبتكر المنهج الذي يؤسس المعجم على أوائل الكلمات حسب ترتيب حروف الهجاء، وإنما مبتكرها محمد بن تميم البرمكي.

وفيما ذهب إليه الدكتور بكري مجال للقول والنقد، ومن ذلك قوله: «والثانية - مدرسة ابن دريد في جمهرة اللغة».

ووجه الخطأ أن ابن دريد ليس صاحب مدرسة في معجمات العربية، لأنه من مدرسة الخليل، وقد أقمنا الدليل في «مقدمة الصحاح» على انتساب ابن دريد إلى مدرسة الخليل.

أما قوله: «درجنا في الوطن العربي على تقسيم المدارس المعجمية إلى أربعة أقسام» فما رأيت هذا الدرج، وما كان هذا التقسيم إلا بأَخَرَة، ولعلي أول من قسم المعجمات العربية إلى مدارس معدودات، فقد ذكرت في «مقدمة الصحاح» هذا التقسيم، وطُبِعَتْ مع الصحاح سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م).

وفي سنة ١٣٦٠ هـ كنت بالمدينة المنورة - زادها الله شرفاً وتعظيماً - ودار الحديث بمجلس العالم الفاضل السيد علي حافظ في المعجمات العربية، وفي «تهذيب اللغة» للأزهري، و «التكملة والذيل والصلة» للصَّغاني، وفي «جمهرة اللغة» لابن دريد،

(١) الصواب «ديوان الأدب» وقد عني مجمع اللغة المصري بنشره.

وعرضت على الحضور - وكانوا من أكابر أهل المدينة وعلمائها وأدبائها - رأيي في « مدارس المعجمات العربية » وعددهن، فقال السيد الجليل علي حافظ: هذا شيء جديد أسمعه لأول مرة، ولم أقرأه في كتاب أو صحيفة.

وأيده من حضروا، ثم علم برأيي هذا الإمام اللغوي الشيخ عبد القدوس الأنصاري؛ وسألني فأجبته، فسُرَّ وهنأني وقال: هذا جديد مبتكر غير مسبوق إليه.

ومعروف أن الإمام الأنصاري حجة العربية، وأول سعودي كتب في اللغة بحوثاً رائعة، وما يزال - مدّ الله في عمره - من أئمة العربية في هذا العصر، ومن أعظم الغُيُر على الفصحى: لغة القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام[1].

وإذا كانت « مقدمة الصحاح » قد طبعت سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) فإن رأيي في تقسيم المعجمات العربية إلى مدارس قد سبق ظهور المقدمة بخمس عشرة سنة.

والثابت ظهور رأيي في مدارس المعجمات على نطاق العالم العربي والإسلامي ومحافل الاستشراق والمعنيين بالعربية قد كان سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) في « مقدمة الصحاح » فكان رأيي في مدارس المعجمات وقَسْمها أول رأي في هذا السبيل.

ويعلم الدكتور بكري أنه لا يقال: « درج » إلا فيما عرف واشتهر، وما كان هذا التقسيم معروفاً قبل مقدمة الصحاح التي طبعت مستقلة في كتاب بعنوان « الصحاح ومدارس المعجمات العربية » الذي طبع طبعتين: إحداهما بالقاهرة، والأخرى ببيروت.

وأما قول الدكتور بكري: « وجاء الباحثون السعوديون فأقروا شيئاً من هذه التقسيمات وأنكروا شيئاً آخر » فالذي أعرفه نقيض قوله، فما ثَمَّ باحثون سعوديون أقروا شيئاً من هذه التقسيمات وأنكروا شيئاً آخر.

وإذا أراد الدكتور بالباحثين السعوديين حمد الجاسر وكاتب هذه السطور فليس للجاسر رأي في مدارس المعجمات، وإنكاره على الجوهري ابتكار منهج الصحاح لا يغير من هذه المدارس شيئاً، فهن كما هن حسب التقسيم الذي رأيته.

وأما قوله: « فلقد أثبت الشيخ حمد الجاسر في عدد من الأبحاث العميقة التي نشرها في مجلته « العرب » في أعداد سنتها الأولى أن أبا بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) سبق الجوهري في منهج التقفية بمائة سنة، لأن الجوهري توفي سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) وأتى بالأدلة المادية، والصور الفوتوغرافية لمخطوط البندنيجي

---

(١) توفي الإمام الأنصاري بمستشفى الحرس الوطني بقرية أم السلم بطريق جدة - مكة، وكانت وفاته يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ (١٦ أبريل ١٩٨٣ م) ودفن بمكة المكرمة بالمعلى.

المسمى: كتاب التقفية »، فمردود.

ودليلنا حمد الجاسر نفسه الذي ذكر أن هذا الكتاب من الكتب المغمورة التي قلّ أن يرد لها ذكر في كتب اللغة. أما أن « هذا من الأسباب التي حملت كثيراً من الباحثين على الاعتقاد بأن الجوهري هو مبتكر منهج ترتيب الكلمات العربية بحسب الحرف الأخير منها » فعجيب أن يصدر من علماء ذوي بصر ثاقب من أمثال الدكتور بكري شيخ أمين يغفلون عن فهم المعجم اللغوي فيحسبون الصحاح وكتاب التقفية ذوي موضوع واحد، ومنهج واحد، وغاية واحدة، مع أن البندنيجي أدرك معنى المعجم اللغوي، وعرف الفارق بين عمله وعمل المعجم فسمى كتابه «كتاب التقفية» وذكر الغاية من التأليف، دون أن يكون له منهج معجمي، وسنذكر فيما سيأتي المزيد من البيان والبرهان.

أما مدارس المعجمات في العربية فأربع - كما ذكرنا في مقدمة الصحاح - وهن:

الأولى - مدرسة الخليل، وسار على نهجها: ابن دريد في جمهرته، والأزهري في تهذيبه، وابن عباد في محيطه، والقالي في بارعه.

الثانية - مدرسة القاسم بن سلام، ونهج منهجه ابن سِيدَهْ في مخصصه، والثعالبي في فقه اللغة، ومن المحدثين المعاصرين عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى.

الثالثة - مدرسة الجوهري، ونسج على منواله الفيروزأبادي في القاموس، وابن منظور في لسان العرب، والصَّغاني في التكملة والذيل والصلة، وفي مجمع البحرين، وفي العباب.

الرابعة - مدرسة البرمكي، وتبعها الزمخشري في أساس البلاغة، ثم ألفت عشرات المعجمات على هذا المنهج الذي صار أسلوب العصر الحاضر في تأليف المعجمات.

وذكرنا سمات كل مدرسة ومزاياها، ولم نذكر مع المدارس الأربع منهجاً جديداً لم نعتدَّه مدرسة، وإن كان صاحب هذا المنهج مبتكراً ورائداً، لم نذكر منهجه ولم نعتدَّه مدرسة، لأن المنهج لم يكن متبوعاً، ولم يأت بعده من يهتدي بهديه، فبقي فذاً وحده ومهجوراً، وهو نهج نشوان بن سعيد الحميري، المتوفى سنة ٥٧٣ هـ في معجمه العظيم « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ».

وكتبت عنه منذ زمن بعيد، وكنت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ١٣٦١ هـ أو قريباً منها فذكر لي العلامة السيد عبيد مدني - رحمه الله - أن لديه مختصراً للشمس، ودعاني إلى منزله فزرته، ولقيت شقيقه العلامة الأستاذ السيد أمين مدني، مدّ الله في عمره.

واطلعت على المختصر، وتحدثنا في المعجمات العربية، وكانا قد علما برأيي في تصنيفها إلى مدارس، فسألني السيد عبيد: لماذا لم تعُدَّ نشوان بن سعيد الحميري صاحب مدرسة؟ أليس مبتكر منهجه في تأسيس معجمه؟

فأجبته: بلى، إنه مبتكر ورائد، ولكني لم أعُدَّه صاحب مدرسة، لأنها غير متبوعة، ولم يأت من اتبع منهجه!

وعندما صدرت الطبعة اليمنية نقدتها في مجلة « الرسالة »[1] القاهرية، وأشرت إلى طبعة ليدن التي حققها زِتَّرْسْتِينْ، وكلتا الطبعتين لم تستغرق من معجم نشوان إلا جزءاً يسيراً، وطبعة اليمن مزدحمة بمئات الغلطات، وغير محققة بتة، وخير منها طبعة زِتَّرْسْتِينْ.

ومنهج نشوان بن سعيد الحميري الذي لم يتبعه أحد بعده قد وضحه هو نفسه في مقدمة معجمه إذ قال:

« وقد صنَّف العلماء رحمهم الله تعالى في ذلك كثيراً من الكتب، وكشفوا عنه ما يستر من الحجب، واجتهدوا في حراسة ما وضعوه، وما حفظوه، وصنَّفوا من ذلك وجمعوه، ورَوَوْه عن الثقات وسمعوه، فمنهم من جعل تصنيفه حارساً للنقط، وضبطه بهذا الضبط، ومنهم من حرَس تصنيفه بالحركات بأمثلة قدروها، وأوزان ذكروها، ولم يأت أحد منهم بتصنيف يحرس جميع النقط والحركات، ويصف كل حرف مما صنفه بجميع ما يلزمه من الصفات، ولا حرس تصنيفه من النقط والحركات إلا بأحدهما، ولا جمعهما في تأليف لتباعدهما، فلما رأيت ذلك ورأيتُ تصحيف الكتّاب والقرّاء؛ وتغييرهم ما عليه كلام العرب من البناء حملني ذلك على تصنيف يأمن كاتبه وقارئه من التصحيف، يحرُس كل كلمة بنقطها وشكلها، ويجعلها مع جنسها وشكلها، ويردُّها إلى أصلها، وجعلت فيه لكل حرف من حروف المعجم كتاباً، ثم جعلت لكل حرف معه من حروف المعجم باباً، ثم جعلت كل باب من تلك الأبواب شطرين: أسماءً وأفعالاً، ثم جعلت لكل كلمة من تلك الأسماء والأفعال وزناً ومثالاً، فحروف المعجم تحرُس النقط، وتحفظ الخط، والأمثلة حارسة الحركات والشكل، ورادَّة كل كلمة من بنائها إلى الأصل، فكتابي هذا يحرس النقط والحركات جميعاً، ويدرك الطالب فيه ملتمسه سريعاً، بلا كدِّ مطية غُرَيْرِيَّة[2]، ولا إتعاب خاطر ولا رَويةٍ، ولا طلب شيخ يقرأ عليه، ولا مفيد يفتقر في ذلك إليه، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب، مستعيناً بالله رب الأرباب، طالباً لما عنده من الأجر والثواب، في نفع المسلمين، وإرشاد المتعلمين، وكان جمعي له بقوة الله عز وجل وحوْله،

---

(١) العددان: ٩٤٩ و ٩٥٠ الصادران في ٩ و ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٧٠ هـ (١٠ و ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥١) السنة التاسعة عشرة.

(٢) جاء في طبعة زترستين وطبعة اليمن: « غريزية » وهو خطأ، صوابه: « غُرَيْرِيَّة » نسبة إلى الغُرَيْر: فحل من فحول العرب، وعندما كتب العلامة الشيخ عبد القادر المغربي كلمة عن « شمس العلوم » بمجلة المجمع العلمي بدمشق، كنت في زيارة المجمع، وكانت بيده تجربة مقاله، وأطلعني عليها، ولم يفطن إلى خطأ « غريزية » فذكرت له الصواب فسُرَّ – رحمه الله – وذكر ما رأيته من الصواب، ودفعته أمانته إلى نسبة ذلك إليَّ، وعدّل مقاله.

ومُنَّته وطَوْله، لا بحولي وقوتي، ولا بطولي ومنتي، لما شاء عز وجل من حفظ كلام العرب، وحراسته بهذا الكتاب على الحقب، وسميته «كتاب شمس العلوم، ودواء كلام العرب من الكلوم، وصحيح التأليف، ومعجم التصنيف، والأمان من التصحيف».

وذكر الدكتور بكري شيخ أمين أن باحثاً استدرك على حمد الجاسر، فذكر الفارابي، وأنه سبق الجوهريَّ، ولم يفتنا ذكر الفارابي ومنهجه قبل استدراك الباحث بسنوات.

وكتب الدكتور بكري شيخ أمين بحثاً في «الصحاح» وعملي فيه، ونشره في «المجلة العربية»[1] وأعاد القول فيما ذهب إليه الجاسر، وجاء في البحث قوله:

«ولم نطلع على رد الأستاذ العطار على هذه النقطة، ولعله كتب ولم نصل إلى ما كتب، أو لعله آثر عدم الرد معتقداً أن المنهج المتكامل للجوهري يخوله حق إمامة هذه المدرسة وادعائها».

وأنا لم أردَّ على ما ذهب إليه حمد الجاسر، لأن ما رآه لم أرض عنه، وكنت أحسب أن من القراء من أمثال الدكتور بكري لن يفوتهم إدراك الصواب في هذا الأمر، ولكن فاتهم، حتى أن باحثاً عراقياً حقق كتاب البندنيجي أخذ برأي الجاسر، واضطرني ذلك إلى كتابة رد عليه نشر في السنة الماضية بمجلة «المنهل» لصاحبها العلامة الشيخ عبد القدوس الأنصاري، وبالملحق الأدبي لجريدة «المدينة المنورة».

واطلعتُ بأَخَرَة على كتاب (التقفية)[2]. محققاً بقلم الدكتور خليل إبراهيم العطية الأستاذ بكلية الآداب بجامعة البصرة، وقرأت تقديمه الكتاب، فإذا هو آخذ برأي الشيخ حمد الجاسر ومؤيدُه ومُسَلِّم به ومؤكدٌ أن الجوهري غير مبتكر منهجه في صحاحه، وإنما المبتكر البندنيجي.

وجاء في تقديم الدكتور العطية قوله: «احتل معجم (تاج اللغة وصحاح العربية) المعروف بالصحاح لأبي نصر إسماعيل الجوهري المتوفى سنة أربعمائة للهجرة مكانة رفيعة لدى القدماء، فأولوْه رعايتهم، وصادق اهتمامهم، وتناوله كثير منهم بالدراسة بين شارح له أو مختصر أو ناقد.

«وتأثر بنظامه المعتمد على القوافي جمهرة منهم كانوا له محتذين، وما زالت أشهر المعجمات المتداولة التي ارتضت طريقته كلسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس

---

(١) العدد ٦ السنة الثانية، محرم ١٣٩٨ هـ (٧٧ - ١٩٧٨ م).

(٢) عُني بنشره وزارة الأوقاف بالجمهورية العراقية، وهي وزارة متضرِّمة النشاط في نشر كتب التراث، ومثلها وزارة الإعلام العراقية وغيرها من الوزارات والإدارات التي نشرت مئات الكتب، حيا الله العراق.

تشغل مكانة خاصة لدى الباحثين.

« ولعل طريقة الصحاح في ترتيب الكلمات على القوافي التي زعم الجوهري في مقدمته أنه مبتكرها، كانت من أهم أسباب ذلك الاحتفال وتلك الرعاية.

« وقد ظل الكثير من الناس على هذا الظن معتقدين أن الجوهري مبتكر هذا النظام الفريد لاتصافه بالسهولة واليسر إذا قيس بنظام معجم (العين) المخرجي العسير على المتكلمين[1].

« ولقد آن أن نتبين أن لغوياً آخر هو البندنيجي سبقه إلى ابتكار هذا النظام بمعجمه الذي نقدمه للنشر محققاً » إلخ.

وعجبت من كلام الدكتور العطية ودعاواه وقذفه إمام العربية الجوهري واستخفافه به، كما عجبت من عدم تفرقته بين « الصحاح » و« كتاب التقفية » في التأسيس والمنهج والنظام، وبين الجوهري الإمام الطُّلَعة الرائد المبتكر، والبندنيجي الذي لم يفطن للعمل المعجمي.

ومن غير اللائق بعالم محقق أن يقول: « زعم الجوهري في مقدمته أنه مبتكرها » ولا يصح أن ينسب الزعم إلى الجوهري، فما كان زاعماً فيما ادعى، وإنما كان على الصدق والحق فيما قال بمقدمة صحاحه.

وذكر الدكتور العطية في تقديمه أن من بين من تناولوا الصحاح بالدراسة من شرحه، وما علمت أن هناك شارحاً للصحاح، فلعله يدلنا عليه.

ولما كان الدكتور العطية فيما ذهب إليه من نفي الابتكار عن الجوهري وحكمه به للبندنيجي تابعاً الجاسر فإن ردنا عليه يشمله، وها هو ذا الرد وليس النص المنشور، لأننا أضفنا إليه بعض ما جدَّ لنا من رأي.

نشر الجاسر في مجلته المسماة « العرب »[2] مقالاً بقلمه تحت عنوان « الجوهري ليس مبتكر منهج التقفية في المعجم العربي ».

يقول الجاسر: « لقد سبق الجوهريَّ إلى هذه الطريقة عالمٌ مغمور عاش قبل الجوهري بما يقرب من مائة عام، وهذا العالم هو أبو بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي ».

ويقول: « إن البندنيجي هذا – على ما ذكره ياقوت – عاش فيما بين سنتي

---

(١) ليس بصحيح قوله: « المخرجي العسير على المتكلمين » فما ثَمَّ عسر عليهم، وإنما العسر على الباحثين.

(٢) الجزء السابع، السنة الأولى، المحرم ١٣٨٧ هـ/نيسان ١٩٦٧ .

٢٠٠ و ٢٨٤ هـ والجوهري عاش بين سنتي ٣٣٢ و ٣٩٣ هـ على اختلاف في ذلك، ومما لا شك فيه تقدم البندنيجي عليه في الزمن تقدماً لا يقل عن مائة عام ».

ويقول: « أما كتاب التقفية فإنه من الكتب المغمورة التي قلَّ أن يرد لها ذكر في كتب اللغة، وهذا من الأسباب التي حملت كثيراً من الباحثين على الاعتقاد بأن الجوهري هو مبتكر منهج ترتيب الكلمات العربية بحسب الحرف الأخير منها ».

ثم يقول: « أما منهج الكتاب فقد أوضحه مؤلفه في المقدمة التي نسوق بنصها[1] ليتبين ذلك المنهج واضحاً وهي هذه بعد البسملة مباشرة:

« هذا كتاب التقفية إملاء أبي بشر، وسماه بذلك لأنه مُؤَلَّف على القوافي والقافية والبيت من الشعر، ونظر في الكلام فوجده على الحروف الثمانية والعشرين المرسومة با تا ثا عليها بناء الكلام كله عربيه وفصيحه فهي محيطة بالكلام لأنه ما من كلمة إلا ولها نهاية إلى حرف من الثمانية والعشرين حرفاً، فأراد أن يجمع من ذلك ما قدر عليه وبلغه حفظه، إذ كان لا غنى لأحد من أهل المعرفة والأدب عن معرفة ذلك، لأنه يأتي في القرآن والشعر وغير ذلك من صنوف الكلام، فجمع ما قدر عليه وأدركتْه معرفتُه، ثم رأى أنه لو جمع ذلك على غير تأليف متناسق، ثم جاءت كلمة عربية يحتاج الرجل إلى معرفتها من كتابنا بعدُ لصعب عليه إدراكها لسعة الكلام وكثرته، فألفه تأليفاً متناسقاً متتابعاً ليسهل على الناظر فيما يحتاج إلى معرفته.

« قال: ونظرنا في نهاية الكلام فجمعنا إلى كل كلمة ما يشاكلها مما نهايتها كنهاية الأول قبلها من حروف الثمانية والعشرين، ثم جعل ذلك أبواباً على عدد الحروف، فإذا جاءت الكلمة مما يحتاج إلى معرفتها من الكتاب نظرت إلى آخرها مما هو من هذه الحروف فطلبته في ذلك الباب الذي هي منه فإنه يسهل معرفتها إن شاء الله.

« وقد يأتي من كل باب من هذه الثمانية والعشرين أبواب عدة، لأنا إنما ألفناه على وزن الأفاعيل، فلينظر الناظر المرتاد وزن الكلمة في أي الأبواب هو فإنه يدرك الذي يطلبه.

« وأضفنا إلى كل كلمة من كل باب ما يشاكلها من الكلام الفصيح الذي لا يجهله العوام ليكون ذلك أجمع لما يريده المرتاد لما وصفناه.

« وأول ما ابتدىء في كتابنا هذا الألف، لأنها أول الحروف، وعلى ذلك جرى أمر الناس، ثم نؤلفه على تناسقه ».

ونشر الجاسر بضع صفحات من الكتاب ثنتين من أوله واثنتين من آخره، وجاء بعد

---

(١) هكذا في الأصل. وهو غلط، والصواب: بعضها.

مقدمة المؤلف قوله: « باب الألف الممدودة: الاباء: القصب، ويقال: رؤوس القصب ».

ثم يقول الجاسر: «ثم أورد كلمات على هذا الوزن وكلمات أخرى مثل: الإقواء، والانحناء، والاستخذاء، والحوباء، والأهواء، وآخر الباب: « الإغواء: يقال: أغواه يُغْويه إغواء إذا حمله على الغي، ويقال: غَويَ الفصيلُ يَغْوي غَوى شديداً، إذا شرب من اللبن حتى يكاد يسكر » إلخ.

وهذا كتاب التقفية ومنهج تأليفه ومؤلفه كما ذكر الجاسر، وكله برهان على أن دعواه بسبق أبي بشر البندنيجي الجوهريَّ ليست أهلًا للأخذ بها، إذا أريد منها انتزاع راية الابتكار من الجوهري صاحبها الأصيل وإعطائها غيره.

فالجوهري إمام هذه المدرسة دون منازع وغير مُدَافَع وإن كان مسبوقاً في الزمن والتأليف من قبل البندنيجي أو الفارابي، لأن البندنيجي وكتابه مغموران باعتراف الجاسر، ولأن البندنيجي لم يقصد أن يؤلف معجماً لغوياً، وليس كتابه إياه، وقد فطن لعمله فذكره في مقدمة كتابه إذ يقول: « هذا كتاب التقفية إملاء أبي بشر وسماه بذلك لأنه مُؤلَّف على القوافي والقافية والبيت من الشعر ».

فما ادعاه له الجاسر لم يزعمه المؤلف لنفسه، لأنه كان فاهماً ومدركاً حقيقة عمله، هذه الحقيقة التي جهلها الجاسر جهلًا مطبقاً.

ولو اطلع الجوهري على « كتاب التقفية » لما جرؤ إنسان يعرف الحق ويتبعه أن ينتزع راية الابتكار من الجوهري ويعطيها البندنيجي.

فكيف والإمام الجوهري لم يطلع عليه، إذ لو اطلع عليه لذكره وأشار إليه، ولم أجد في معجمات العربية في عصر الجوهري ولا في المعجمات التي أعقبته أي إشارة إلى كتاب البندنيجي، وقد اعترف الجاسر أن البندنيجي وكتابه مغموران.

ولهذا لا يمكن أن ننفي ابتكار الجوهري طريقة تأسيس معجمه، وما كان السبق في الزمن نافياً الابتكار ما دام من يوصف به لم يطلع على عمل من سبقه، فكيف وعمل البندنيجي – بعد أن عُرِفَ وظهر – لا يعد سبقاً بالنسبة للجوهري لاختلاف منهجه عن منهج البندنيجي كل الاختلاف الذي جهله الجاسر جهلًا.

ولو ادعى الجاسر أن الفارابي في معجمه « ديوان الأدب » سبق الجوهري في الابتكار والتأليف لكان في دعواه نظر، أما دعواه في نفي الابتكار عن الجوهري أن البندنيجي سبقه فمردودة، ولا يمكن أن تجوز دعوى الجاسر على إنسان يفهم المعجم فهماً سليماً.

وقد سبق باحث هو العلامة المستشرق الألماني فريتس كرنكو (١٨٧٢ – ١٩٥٣ م) حمد

من هذه الصفحة مكرر في بداية الملف التالي، ووضعته هنا لئلا ينقطع الكلام، وكرر في الملف التالي لأن الترقيم يبدأ من هنا، فليتنبه

الجاسر في إنكار الابتكار على الجوهري، وقد رددنا عليه إنكاره في مقدمة الصحاح، وفندنا زَعْمَة كرنكو إذ ادعى أن الجوهري سرق في صحاحه موادَّ كتاب الفارابي وقلنا في صفحة ٨٠ - ٨١:

« ولقد أسرف الأستاذ كرنكو في دعواه، ولا سند له، فديوان الأدب للفارابي وصحاح الجوهري موجودان، ومنهما نسخ كثيرة صحيحة، والفارق بين المعجمين كبير، وبعد كل هذا نجد عمل الجوهري أصح وأكمل وأعظم من عمل خاله الفارابي.

« ونحن لا نشك في أن الفارابي يُعَدُّ واضع بعض أساس منهج الصحاح، وفوق هذا أربى الجوهري على خاله وأتى بنظام دقيق بذه فيه، وكان نظامه آية بينة.

« ولعل مما أثار وَهْمَ كرنكو حتى زعم ما زعم أن ياقوتاً يقول: « رأيت نسخة من كتاب ديوان الأدب بخط الجوهري، وقد ذكر فيها أنه قرأها على أبي إبراهيم بفاراب ». ولا يبعد أن يكون الجوهري قد اطلع على كتاب خاله، ولكن عبارة ياقوت غير دقيقة، وينفيها أن الفارابي ألف كتابه في زبيد وتوفي بها، وهذا يمنع الجوهري من القراءة على خاله، ولا يمنعه من الاطلاع عليه واستنساخه.

« وإذا قلنا: إنه اطلع على « ديوان الأدب » وقرأه على مؤلفه فإن ذلك لا يوجب اتهام الجوهري بسرقة كتاب خاله، فالفارق بينهما كبير في المنهج والترتيب والنظام وعدد المواد.

والتقاء الفارابي والجوهري في نقطة أو نقاط ليس دليلاً على أن الثاني سطا على الأول، وإلا لَعُدَّ الإمام الأزهري سارقاً كتاب العين للخليل، وعُدَّ كل تابع مدرسة معجمية سارقاً من الرائد، ولكن أحداً لا يستطيع - في مثل هذه الأحوال - أن يتهم عالماً إماماً بالسرقة إذا اتفق مع غيره في المنهج وأكثر المواد ».

وقلنا في مقدمة الصحاح صفحة ١٠٣:

« ولم ننسب هذه المدرسة إلى الفارابي مع تقدمه ومع أن الجوهري يلتقي معه في بعض النقاط، لأن الفارابي ألمع إلماعاً إلى بعض منهج الجوهري، ولكن الجوهري جاء بما وفى على الغاية، ووصل فيه إلى النهاية، وأحكم النظام، وضبط المنهج، فانتسبت المدرسة إليه، وهو بهذه النسبة جدير، لأنه إمامها الفاذ، وعلمها الذي لا تخطئه العين مهما ابتعدت عنه ».

هذا ما قلناه في الفارابي والجوهري ومعجميهما مع شهرة « ديوان الأدب » للفارابي ومع تقدمه على الصحاح.

وسبْق كتاب التقفية للبندنيجي لا يغير من الأمر شيئاً، فتقدم الزمن بأبي بشر البندنيجي وبمؤلفه لا يجعله إمام هذه المدرسة ورائدها، وإذا كنا لم نرض بالإمامة للفارابي

الإمام المشهور فإننا لا نرضى أن نحكم بالسبق للبندنيجي المغمور الذي لم يؤلف معجماً لغوياً وإنما ألف كتاباً في التقفية.

والمحاكاة في عمل الجوهري لعمل البندنيجي غير واردة، ولم يَدَّعِها أحد، ولا يمكن أن يدعيها، فالجوهري لم يطلع هو ومعاصروه من مؤلفي المعجمات على كتاب البندنيجي، لأنهما مغموران كما قرر الجاسر نفسه، ومع هذا ادعى الدعوى الباطلة المردودة.

فالإمام الجوهري مبتكر منهجه ابتكاراً، وقد انتهى إليه ابتداء وإن ظهر في هذا العصر على يد الجاسر أن «كتاب التقفية» تقدم معجم الصحاح بزمن غير يسير.

ونحن – ومعنا الحق والعلم والتاريخ والواقع – نؤكد أن الجوهري قد انتهى إلى منهجه دون أن يكون بين يديه مثال سبقه فتأسّاه، وإنما انتهى إليه بعد دراسة واعية شاملة لمناهج رُوّاد المعجمات العربية الذين سبقوه، فهو قد رأى وعورة منهج الخليل فلم يأخذ به، كما لم يأخذ بمنهج أبي عبيد القاسم بن سلام الذي بنى معجمه «الغريب المصنّف» على المعاني والموضوعات، ولم يأخذ بمنهج أبي عمرو بن العلاء الذي أسس معجمه المسمى «كتاب الجيم» على أوائل الكلمات متخذاً ترتيب حروف الهجاء، مبتدئاً بالهمزة منتهياً بالياء، وسبب انصرافه عن منهج أبي عمرو أن الجوهري رأى فاء الكلمة غير ثابتة في موضعها، وكذلك الحرف الذي يليها وهو العين، فاتخذ منهجاً جديداً يخالف ما عرف من مناهج المعجمات، وخرج عليهم بمنهج غير معروف، وأشار الجوهري نفسه إلى منهجه في مقدمة الصحاح قائلاً: «على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه».

والجوهري صدوق، وقوله هذا حق كله، فهو لم ينهج نهج الفارابي في كتابه «ديوان الأدب» مع أن منهجيهما يلتقيان في بعض النقاط.

وكلمة الجوهري: «على ترتيب لم أسبق إليه» تدل على أنه لم يطلع على كتاب التقفية للبندنيجي المغمور هو وكتابه، وما دام الجوهري الإمام الحجة الثبت الصدوق يقول: إن ترتيبه لم يسبق إليه فالقول قوله، لأن الحق معه، ولا يلتفت إلى قول الجاسر الذي لا يعرف الفارق بين المعجم وغيره.

ومن آيات صدقه أن منهج الجوهري يختلف عن منهج البندنيجي اختلافاً واضحاً مشهوداً في تأسيس كل منهما كتابه بحيث لا تخطئه عين عالم، وسبب كل منهما في التأليف غير سبب الآخر، فالبندنيجي أراد من تأليفه تيسير القافية على راغبيها من الشعراء، وهو مطلب خاص بفئة من الناس هي نَدْرَة نادرة فيهم، وليس الشاعر الفحل المطبوع بحاجة إليه.

ولهذا نجد البندنيجي حشد المادة في بابها دون مراعاة الترتيب المعجمي السليم، فهو

لم ينظر إلَّا إلى حرف القافية في آخر الكلمة، فلم يراع ترتيب الكلمات، بل حشدها وساقها كما اتفق له، فذكر ما كان منتهياً بالهمزة في باب واحد دون أن يراعي الاعلال الصرفي، ودون أن يراعي الحرف الثاني والثالث، بل دون أن يراعي الحرف الأول، ولم يفطن إلى الترتيب الهجائي في ترتيب الكلمات، بل لا حاجة له إلى هذه الفطنة، لأنه لا يؤلف معجماً لغوياً.

فالبندنيجي يفتتح كتابه بباب الألف الممدودة، ويذكر أول كلمة في كتابه «الآباء» مع أن الهمزة الأخيرة منقلبة عن ياء، وهذا ما حمل الجوهري على أن يضعها في الياء، لأن آخر حرف في الكلمة الياء، والفصل فصل الهمزة لأن الكلمة مبدوءة بها.

ولكن البندنيجي لم يكن عليماً بالصرف، ولم يكن يقصد إلى تأليف معجم لغوي، وإنما أراد أن يؤلف في «التقفية» ليكون كتابه عوناً للشعراء في كلمات القافية، ولهذا لم يكن في حسابه الإعلال الصرفي، بل كان كل همه صورة الكلمة، فذكر الاباء في باب الهمزة ولم يذكرها في موضعها الأصيل وهو باب الياء.

ولم يكن البندنيجي آخذاً نفسه بالترتيب المعجمي، بل يذكر الكلمات كما تتفق له دون أن ينظر إليه، فيقدم ما حقه التأخير، ويؤخر ما حقه التقديم.

وأصدق شاهد الصفحتان الأخيرتان من الكتاب اللتان صورهما الجاسر ونشرهما، فقد جاءت فيهما هذه الكلمات على هذا الترتيب: الدالية، الناحية، البادية، الجابية، الكراهية، الرفاهية، الرفاغية، المسائية، الهاوية، القارية، الجامية، النهاية، العناية، الراية، الولاية، السانية، الناجية، الحاوية.

وهذا ليس ترتيباً معجمياً، ولا يطلب من البندنيجي ذلك في كتاب التقفية، لأنه لم يرد أن يؤلف معجماً لغوياً، وإنما أراد أن يؤلف كتاباً في التقفية، والاسم والعمل يدلان على مراده.

والترتيب المعجمي لتلك الكلمات بحسب صورتها الظاهرة هكذا:

البادية، الجابية، الجامية، الحاوية، الدالية، الراية، الرفاغية، الرفاهية، السانية، المسائية (لأنها من ساء) العناية، القارية، الكراهية، الناجية، الناحية، النهاية، الهاوية، الولاية.

وهذا ترتيب غير صحيح في فن المعجمات، لأنه اعتمد على الصورة الظاهرة للكلمة دون أن يرجع إلى أصولها.

ومع أن البندنيجي ألف كتابه في التقفية فإن الكلمات التي ذكرها لا تصلح في قافية

قصيدة واحدة، ولا يمكن أن تأتي فيها لاختلاف تفعيلات البحور، ولو جاءت قوافي قصيدة واحدة لكان الميزان مضطرباً، والخلل كريهاً، وكان حرياً بمن يريد من كتاب يؤلفه لأصحاب القوافي أن يضمن لهم اليسر، مع أن الأمر بَيِّنٌ، ولو اهتدى بهدي الشعراء في قصائدهم لأدرك ذلك، ولكنه لم يفطن للقافية في القصيدة الواحدة، فحشد الكلمات وحشرها كما اتفق له.

والاختلاف واضح بين منهجي البندنيجي والجوهري وعمليهما وقصد كل منهما في عمله.

وإن سبق البندنيجي في الوجود وسبق كتابه لا ينفيان ابتكار الجوهري منهجه، بل يثبتان له الابتكار الذي يؤكده أن البندنيجي نفسه وكتابه معه مغموران، وليس نهجه نهج الجوهري الذي يختلف كله عن نهج البندنيجي في تأسيس المنهج وطريقته.

وما دام الجاسر نفسه يثبت ذلك ويذكره فلا يصح أن ينفي عن الجوهري ابتكاره لمنهجه المعجمي الذي لم يُسْبَقْ إليه.

ومن الثابت المؤكد أن البندنيجي لم يرد من كتابه تأليف معجم لغوي، وإنما أراد تيسير القافية على الشعراء، ولم يرد غيره، وأما الجوهري فلم يرد خدمة الشعراء وإنما أراد أن يقدم معجماً فقدم أصح معجم عربي خطا بالتأليف المعجمي أوسع خطوة عرفها تاريخ المعجمات العربية.

وقد وَهَمَ بعض الباحثين فذكروا سبب ترتيب الجوهري صحاحه على أواخر الكلمات وزعموا أن أراد تيسير القافية على الشعراء والسجع على الكتاب، ورأينا نحن رأياً غير ما رأوا، وقلنا في « مقدمة الصحاح » صفحة ١٢١ – ١٢٢:

« وقد ذكر بعض الباحثين العلماء أن سبب اختيار الجوهري – أو من تبعه – ترتيب معجمه على أواخر الكلمات: التيسير على الشعراء والكتاب النظم والنثر، فالكتاب كانوا يلتزمون السجع، والشعراء القوافي، فهم في حاجة إلى الكلمات باعتبار أواخرها، أو أن غلبة السجع أو نظم القوافي هديا مؤلفي المعجمات – وعلى رأسهم الجوهري – إلى هذه الطريقة.

« ونحن لا نقبل هذا الرأي ونراه غير علمي، وإذا صح هذا السبب فما أهون شأن مؤلفي المعجمات وما أضأل القصد!

« والذي نراه أن منهج الجوهري في ترتيب صحاحه باعتبار أواخر الكلمات غير مقصود منه تيسير الأمر على الشعراء والكتّاب، حتى يجدوا السجع وكلمات القوافي دون عناء، بل أراد الجوهري أن يؤلف معجماً للناس جميعاً دون أن ينظر إلى طائفة واحدة

يؤثرها بعمله العظيم.

« أما المنهج الذي اتبعه فهو من ابتكاره، وهداه إليه علمه الواسع بالصرف واشتغاله به، فهو قد رأى أن ميزان الكلمة الفاء والعين واللام، والتغيير يلحق ما قبل لام الكلمة، وتنقلب « فَعَل » بين أحوال كثيرة وتأتي في صور شتى، وهي: أَفْعَلَ وفَعَّلَ وفَاعَلَ وانْفَعَلَ وافْتَعَلَ وافْعَلَّ وتَفَاعَلَ وتَفَعَّلَ واسْتَفْعَلَ وافْعَوْعَلَ وافْعَوَّلَ وافْعَالَّ.

« وهذه - هي - أوزان مزيد الفعل المجرد، ويظهر منها أن التغيير تناول الفاء والعين، فتارة يتقدم الفاء حرفٌ وتارة حرفان، وتارة ثلاثة، أما العين فقد تنفصل عن الفاء وقد تنفصل عن اللام، وقد تضعَّف.

« أما لام الكلمة فثابتة لا تتغير مهما اختلفت صورة الكلمة إلا في حالات قليلة، ومتى لحقها التغيير أو زيد بعدها حرف أو حرفان فإن الكلمة تنتقل إلى أوزان أخرى، ولا تعتبر من الثلاثي، بل تصير رباعية أو خماسية[1].

« رأى الجوهري أن الفاء والعين لا تثبتان في موضع، ولا تبقيان على حال، أما اللام فثابتة، فترك ترتيب الكلمات على أوائل الحروف لأن فيه مَتِيهَةَ الباحث الذي لا يعرف التصريف والمجرد والمزيد، فكلمة « أكرم » واستنوق وترهل ومحجة تضلل الباحث الشادي، بل رأيت بعض العلماء يضلون في الكشف عن مواضعها من المعجم، ولا يعرف في أي حرف هي.

« أما طريقة الجوهري فمأمونة هادية، فيجد الباحث « أكرم » وكل ما تفرع من مادة « كرم » في باب الميم، واستنوق في باب القاف، وترهل في باب اللام، ومحجة في باب الجيم، وإذا كان الباحث عارفاً بالمجرد والمزيد فإنه سيجد أكرم في فصل الكاف، واستنوق في فصل النون، وترهل في فصل الراء، والمحجة في فصل الحاء.

« وأعتقد أن ما ذكرته هو الذي حمل الجوهري على اتباع منهجه الذي ابتكره ابتكاراً، أما السبب الذي رآه بعض العلماء - وذكرناه - فهو رأي لا قيمة له علمياً.

« وأعانه على هذا الابداع في نظامه علمُه الواسع بالنحو والصرف حتى قيل في وصفه: إنه « خطيب المنبر الصرفي، وإمام المحراب اللغوي » وإنه أنحى اللغويين ».

وما نزال عند رأينا وهو أن الجوهري سابق متفرِّد، وإمام هذه المدرسة دون منازع، ومبتكرٌ فاذٌّ، ومبتدع منهجه ابتداء لم ينظر فيه إلى مثال سبقه.

---

(١) استدراك: ليس هذا تغييراً في لام الكلمة، فهي ثابتة لا تتغير، وإن زيد بعدها حرف فهو من جنسها، وأما الضمائر التي تأتي في أواخر الأفعال فلا تغير من بناء الكلمة.

وترتيب البندنيجي «كتاب التقفية» على أواخر الكلمات ليس من ابتكاره، فقد سبقه إليه الشعراء منذ عرف الشعر العربي الذي يجيء في آخر كل بيت منه حرف القافية الموحدة في القصيدة كلها.

ورأى البندنيجي كلمات القافية فأخذها كما اتفق له وشرح بعض معانيها، وفضله أنه جمع من هذه الكلمات «ما قدر عليه وبلغه حفظه» دون أن يراعي الترتيب المعجمي، لأنه لم يرده، أو لم يفطن له، ولم يأخذ في حسابه إلا الكلمة في صورتها الظاهرة المنطوقة دون أن ينظر إلى أصل الكلمة وصرفها وما لحق بها من إعلال، ودون أن ينظر إلى أوائل الكلمات، بل حشدها حشداً، وحشرها حشراً كما اتفق له، منتهجاً في ذلك نهج الشعراء، فهم لا يرتبون كلمات القافية ترتيباً معجمياً، فقوافي الشعراء غير خاضعة لمنهج المعجميين ولا تتفق معه.

أما نظام الجوهري فهو النظام المحكم، ومنهجه هو المنهج الحق الذي ابتكره ابتكاراً، وسبق به كل من سار على نهجه.

وإذا كنا لم نَعُدَّ الفارابي الذي اتفق الجوهري معه في بعض نقاط منهجه إمام هذه المدرسة مع تبحره في اللغة فإن مما لا يصح أن يُعَدَّ البندنيجي رائد هذه المدرسة وإمام الجوهري ومن اتبع نظامه الدقيق المحكم، لأن البندنيجي: أولاً - مغمور، وثانياً - لأن كتابه نفسه مغمور، وثالثاً - لأن الجوهري وقبله الفارابي لم يطلعا على كتاب البندنيجي، ورابعاً - لأن الجوهري يقول في مقدمة صحاحه: «على ترتيب لم أسبق إليه»، وهو صادق يؤيده واقع التاريخ، وخامساً - لأن منهج الجوهري يختلف كل الاختلاف عن منهج البندنيجي، وسادساً - لأن قصد كل منهما في كتابه يغاير قصد الآخر، وسابعاً - لأن عمل الجوهري عمل معجمي صحيح تتوافر كل شروط المعجم فيه، وثامناً - لأن عمل البندنيجي ليس عملاً معجمياً، وتاسعاً - لأن كتاب البندنيجي ليس معجماً.

وخلاصة القول: إن تقدم البندنيجي في الوجود وسبقه في تأليف كتابه لا يمكن أن ينفيا عن الجوهري الابتكار ويسلباه إياه.

والبندنيجي لم يفطن للتأسيس المعجمي الذي فطن له الجوهري ابتداء، وكان فيه رائداً وإماماً، فهو لم يقتصر في الترتيب على الحرف الأخير من الكلمة، بل نظر إلى الحرف الأول منها؛ ثم وضع في حسابه الحرف الثاني ثم الثالث في الرباعي، ثم الحرف الرابع في الخماسي.

والبندنيجي لم يفطن لهذا النظام المعجمي الدقيق، لأنه لم يقصد إلى تأليف معجم لغوي، ولم يَدُرْ بخلده ذلك.

والجوهري لا يذكر مادة «حبب» بعد «حدب» لأن الباء أسبق من الدال في

الترتيب، أما البندنيجي فلم يفطن لهذا النظام الذي لا يكون المعجم معجماً تاماً إلا به، وكتابه ليس في حاجة إلى هذا النظام المعجمي الدقيق الذي أسسه الجوهري قبل كل رُوّاد المعجمات ومؤلفيها.

والحكم للجوهري بالسبق والابتكار والتفرد حقه وحده في هذا المنهج الذي سار عليه في صحاحه، ولا يعد البندنيجي ممن أدركوا منهج الصحاح، وكل ما اتفقا فيه أن البندنيجي اعتمد أواخر الكلمات، وكذلك الجوهري، ولكنهما يفترقان في هذه المزية أيضاً، فالبندنيجي اعتمد على الحرف الأخير في الكلمة وإن لم يكن لام الكلمة، أما الجوهري فلم يعتمد إلا على لام الكلمة وحدها.

ولو كان عمل البندنيجي ومنهجُه عملَ الجوهري نفسه ومنهجَه عينَه دون أن يطّلع اللاحق على عمل السابق لكان كلاهما مبتكراً وسابقاً، أما وأن عمل البندنيجي ونهجه يختلفان كل الاختلاف عن منهج الجوهري وعمله فإن راية السبق والابتكار والاجتهاد والريادة والإمامة تبقى بيد الجوهري وحده دون منازع فيهم.

وليس من الحق في شيء عقد مقارنة بين البندنيجي والجوهري، بل من الاسراف في الظلم الحكم للبندنيجي على الجوهري، ولكنه حكم غير مقبول، بل يرده كل ذي معرفة بمناهج المعجمات العربية.

وآخر كلمة نقولها: ليس كل سابق في الزمن إماماً، وما أشبه الجوهري بالامام في الصلاة، يتأخر حضوره إلى المسجد عمن سبقوه إليه فيتقدمهم إلى محراب الإمامة دون نزاع أو جدال.

وكذلك الجوهري الإمام الفذ المبتكر السابق على كل من سار على نهجه، بل هو الإمام السابق الفاذ على التحقيق.

تكملة وصلة

عندما كتبت البحث الذي نشرته بين مقدمات الطبعة الثانية من « الصحاح » » لم يكن العلامة البحاثة المحقق الكبير الدكتور إبراهيم السامرائي قد نشر بحثه العظيم في « صحاح » الجوهري و « تقفية » البندنيجي تحت عنوان « لا قياس بين صحاح الجوهري وتقفية البندنيجي ».

ولما كان من المتعذر على كل قارىء شراء « الصحاح » فقد رأيت نشر رأيي في ابتكار الجوهري صحاحه ليقف القارىء على الحق الذي خفي على حمد الجاسر الذي لم يفرق بين

عمل الجوهري وعمل البندنيجي؛ وظنهما من حزب واحد، وهو من الجهل الذي لا يقع فيه أهل البصر بالمعجمات وتأسيسها.

ولو سبق إليَّ بحث العلامة السامرائي لاستشهدت به، ولذكرته في بحثي المنشور في مقدمات «الصحاح» ولكني لم أطلع عليه إلا بأَخَرَة، وهو جدير بإعادة نشره خاتمة لبحثي لأنه شاهد صدق على أن عمل الجوهري غير عمل البندنيجي، ولأن العلامة السامرائي حكمٌ عدل وشاهدٌ صدق.

وها نحن أولاء ننشر بحث الدكتور السامرائي، فلعل الدكتور خليل العطية المختدع بزَعَمات حمد الجاسر وغيره يعودون إلى الحق.

أحمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة